

فَصْلٌ فِي لَقْمَانِ الْحَكِيمِ^(١)

وإنما ذكرته هنا لأنه كان في زمان داود.

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: لقمان بن عبقْر بن مَزِيد بن صادق بن النبوت، من أهل أيلة، ولد على عشر سنين خلت من أيام داود، قاله وهب بن منبه.

والثاني: هو لقمان بن باعور بن لبان من ولد آزر أبي إبراهيم الخليل عليه السلام.

والثالث: لقمان بن عنفاء قاله مقاتل.

وقال ابن قتيبة: واسم أمه: ثارات^(٢) بالثاء المنقوطة بثلاث.

وقيل: كان ابن أخت أيوب عليه السلام.

وقيل: ابن خالته^(٣).

وحكى الثعلبي عن ابن المسيب: أنه كان عبداً أسود عظيم الشفتين، مشقق القدمين، من سودان مصر، ذا مشافر، وكان يُلقَى الحكمة^(٤).

وقال الربيع: كان عبداً نوبياً اشتراه رجل من بني إسرائيل بثلاثين ديناراً ونصف دينار، والرجل يقال له: القين بن جبير. وروي: أنه كان عبداً لقصاب.

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله من كتاب «التوايين» قال: حدثنا المبارك بن علي الصيرفي بإسناده عن جبير^(٥) أبي جعفر قال: كان لقمان الحكيم الحبشي عبداً لرجل جاء به إلى السوق ليبيعه، فكان كلما جاء إنسان يشتريه يقول له لقمان: ما تصنع بي؟ يقول: كذا وكذا، فيقول: حاجتي إليك ألا تشتريني، حتى جاء

(١) انظر قصته في: تفسير الثعلبي ٣١٢/٧، و«عرائس المجالس» ص ٣٥٠-٣٥٤، و«تفسير البغوي» ص ١٠١١، و«زاد المسير» ٣١٧/٦-٣١٨، و«الدر المنثور» ١٦٠-١٦٥.

(٢) في «المعارف» ص ٥٥: واسم أبيه ثاران.

(٣) في (ط): خاله.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١.

(٥) في «التوايين» ص ١١٠: حسن، وليس في (ب)، والمثبت من (ط).

رجل فقال: ما تصنع بي؟ قال: أصيرك بواباً على باب داري، قال: فاشتري، فاشتراه وجاء به إلى باب داره، فأقعدته على الباب، وكان للرجل ثلاث بنات بغايا يبعين في القرية، فأراد مولاه الخروج إلى ضيعة له فقال: يا بني، إني قد أدخلت إليهنّ طعامهن وشرابهن وما يحتجن إليه فأغلق الباب واجلس من ورائه لا تفتحه حتى أعود، وغاب سيده فأغلق الباب عليهن، وكان يقعد طول النهار على الباب فيناديه: افتح الباب، فلم يفتح، فناديه ثانياً وثالثاً فلم يفتح فشججه مَوْضِحَةً، فغسل الدم عن وجهه فعدن فشججه فلم يفتح، وقدم سيده فلم يخبره بشيء، فعاد سيده فغاب، ففعلن به كما فعلن في الأول، وقدم سيده فلم يخبره بشيء. ثم غاب سيده ثالثاً وفعلن به كما فعلن في المرة الثانية، وقدم مولاه فلم يخبره بشيء، فقالت الكبرى: ما بال هذا العبد الحبشي أولى بطاعة الله عز وجل مني، والله لأتوين. قال: فتابت. فقالت الوسطى: ما بال هذا العبد الحبشي وأختي أولى بالتوبة مني، فتابت. وقالت الصغرى كذلك وتابت. فقالت غواة القرية: ما بال هذا العبد الحبشي وبنات فلان أولى بطاعة الله منا. فتاب الرجال والنساء وصاروا زهاداً عباداً^(١).

وقال الواقدي: كان لقمان قاضياً في بني إسرائيل يسكن ببلد أيلة ومدين، ولم يزل زاهداً في العالم يسكن فيافي الأرض.

وعامة المؤرخين على أنه كان في زمان داود إلا ابن المنادي، فإنه قال: كان على عهد زكريا ويحيى، وكان يسكن الرملة، وقام ما بين الرملة وبيت المقدس حتى مات، وهو وهم منه، والأول أصح.

واختلفوا هل كان نبياً أم عبداً صالحاً؟ على قولين:

أحدهما: أنه كان نبياً، قاله ابن المسيب. وحكاه الثعلبي عن عكرمة، ثم قال الثعلبي: تفرّد عكرمة بهذا^(٢).

وعامة العلماء على أنه كان عبداً صالحاً أطاع الله فآتاه الله الحكمة.

(١) «التوايين» ص ١١٠-١١١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١.

وقال سلمان الفارسي: اختار طاعة الله على غيرها فاتاه الحكمة وخزن عنه النبوة.
وقال الحسن البصري: كان خياطاً وليس بلقمان صاحب النور ابن عاد، بينهما زمان طويل.

وروى الثعلبي عن ابن عمر عن النبي ﷺ ولم يسنده قال: حقاً أقول لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً صمّاماً^(١) كثير التفكر، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، فمن الله عليه بالحكمة. كان نائماً نصف النهار إذ جاءه نداء: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت وقال: إن خيرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاء، فإن عزم عليّ فسمعاً وطاعة، فإني أعلم إن فعل بي ذلك أعاني وعصمني، فقالت الملائكة - بصوت لا يراهم -: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأدركها وأكدرها، يغشاه الظلم من كل مكان، فإن يعدل فبالحرى أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً خيراً من أن يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتته الدنيا ولا تصيبه الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطق، فنام نومة فأعطي الحكمة، فانتبه يتكلم بها، ثم نودي داود بعده فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان فهو في الخطيئة غير مرة، كل ذلك يعفو الله عنه. وكان لقمان يؤازره بحكمته. وقال له داود: طوبى لك يا لقمان، أُعطيَت الحكمة وصُرِفَت عنك البلوى، وأُعطي داود الخلافة وابتلي بالبليّة والفتنة^(٢).

وقال الثعلبي بإسناده إلى خالد الربيعي قال: كان لقمان نجاراً^(٣).

وروى الأوزاعي عن عبد الرحمن بن حرمة قال: جاء أسود إلى ابن المسيب يسأله فقال له سعيد: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من خيار الناس ثلاثة من السودان، بلال ومهجع ومولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولقمان الحكيم^(٤).

(١) في «عرائس المجالس» ص ٣٥١: عصمه الله تعالى والصمّام: المصمّم. اللسان: (صمم).

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١. وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٨٥/١٧.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٢.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١، وتفسير الثعلبي ٣١٢/٧ فما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

قال ابن عباس: المراد بالحكمة هاهنا: العقل والفهم والإصابة في القول^(١). وقال وهب: قرأت في حكمة لقمان عشرة آلاف باب لم تسمع الناس كلاماً أحسن منه، ثم رأيت الناس قد أدخلوه في كلامهم واستعانوا به في خطبهم. واختلفوا في أول ما ظهر من حكمته على أقوال:

أحدها: ما حكينا عنه أنه قال لما قيل له: هل لك أن تكون خليفة؟ وقد ذكرناه عن النبي ﷺ.

والثاني: أنه كان يختلف إلى داود يقتبس منه، فاختلف إليه سنة لم ينطق بلفظة، وداود ينسج درعاً، وحكمة لقمان تمنعه من السؤال، فلما تمت الدرع قام داود عليه السلام فلبسها - أو صبها على نفسه - وقال: نعم درع الحرب هذه، قال لقمان لما رأى ذلك: الصمتُ حِكْمٌ وقليلٌ فاعِلُهُ. فقال داود: انظروا إلى رجل أوتي الحكمة ووقي الفتنة. قاله مقاتل.

والثالث: أن سيده أمره أن يذبح شاةً ويأتيه بأطيب مضغة فيها وأخبث، فجاءه باللسان والقلب، فقال: ما هذا؟ فقال: ليس في الحيوان أطيب منهما إذا طابتا ولا أخبث منهما إذا خبثتا. قاله ابن أبي نجيع^(٢).

والرابع: أن مولاه الذي اشتراه بثلاثين ديناراً وكان يخاطر على النرد، وعلى بابه نهر جار، فلعب يوماً مع رجل على أنه إن قُمر شرب ماء النهر كله أو يفترق نفسه بما يريد صاحبه، فقمر، فقال له القامر: إما أن تشرب ماء النهر وإلا فقأت عينك أو أخذت جميع مالك، فقال: أمهلني الليلة. وأمسى كئيباً قلقاً، وجاء لقمان حاملاً حزمة حطب على ظهره فوضعها، فرأى سيده حزيناً فسأله عن حاله، فأعرض عنه ازدراء به، فأعاد عليه القول فلم يلتفت إليه، فقال: أخبرني لعل الله أن يجعل لك على يدي فرجاً، فأخبره فقال: لا تغتم إذا جاءك وقال: اشرب ما في النهر فقل له: أشرب ما بين

(١) انظر «الدر المنثور» ١٦١/٥.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٦٨٦٧/٢١ عن خالد الربيعي. وانظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٢.

الضفتين أو المد، فإن قال: ما بين الضفتين فقل له: فاحبس عني المد، وإن قال: اشرب المد فقل: فاحبس عني ما بين الضفتين فإنه لا يقدر على ذلك. وجاء القامر فأجابه بجواب لقمان، فذهب الرجل خائباً، فأعتقه مولاه، قاله مكحول الشامي والربيع بن أنس.

وقد أخرج هذه الحكاية جدي رحمه الله في «كتاب الأذكياء» بإسناده إلى مكحول قال: كان لقمان عبداً نوبياً أسود كان قد أعطاه الله الحكمة، وكان الرجل من بني إسرائيل اشتراه بثلاثين مثقالاً ونش، يعني نصف مثقال، وذكره بمعناه^(١).

والخامس: أن سيده دخل الخلاء فأطال الجلوس فيه، فناده لقمان: إن طول الجلوس على الخلاء يورث البواسير ويرقي الأبخرة إلى الرأس ويفسد الكبد، فاجلس هويناً وقم هويناً. فخرج مولاه وكتب على باب الحُش تلك الكلمات. وقال: هذه حكمة لقمان. قاله أبو روق.

والسادس: رواه الضحاك عن ابن عباس قال: وأقام لقمان سنة لا ينطق، فاجتمع إليه أولاد الأنبياء والحكماء وقالوا له: تكلم. فقال: لا خير في الكلام إلا بذكر الله، ولا بالسكوت إلا بالفكر في المعاد.

وقال زيد بن أسلم: قيل للقمان: ألسنتك عبداً حبشياً فمن أين لك هذه الحكمة؟ فقال: لصدق هذا الحديث، وترك ما لا يعنيني. قال: وكان يسلف بأمانة الله ولا يأخذ رهنأ ولا كفيلاً، فكثر ماله ونما حاله.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده إلى عبد الله بن دينار قال: قَدِمَ لقمان من سفر، فتلَقَّاه مولى له فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال: ملكْتُ أمري. قال: فما فعلتُ أمي؟ قال: ماتت. قال: ذهب همي. قال: ما فعلت ابنتي؟ قال: ماتت. قال: سُتِرت عورتِي. قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت، قال: جُدَّدَ فراشي. قال: ما فعل أخي. قال: مات. قال: انقطع ظهري^(٢).

(١) «الأذكياء» ص ٢٧-٢٨.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٢، وتفسير الثعلبي ٣١٨-٣١٧/٧، وتاريخ دمشق ٣٨٣٧/٢٨، والزهد لأحمد (٥٥٨).

ذكر جدي هذا الأثر في كتاب «التبصرة» في آخرها بغير إسناد.

وقال عبد الله بن دينار: قال رجل للقمان: ما أقبح وجهك!! فقال: عبت النقاش أو النقش^(١)؟

فصل في مواعظ لقمان لولده واسمه أنعم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى﴾ [لقمان: ١٣] الآية. عامة العلماء على الوقف في قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿يَبْنَى﴾ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ [لقمان: ١٦] قال ابن عباس: هي الصخرة التي تحت الأرضين السبع^(٢).

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أصل التصعير: الميل. قال ابن عباس: لا تنكر على الناس، وإذا أنكروا عليك ملت عنهم. وقيل: لا تتذلل لغير الله ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨] أي: خيلاء ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أي: أقبح ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] لأن أوله زفير وآخره شهيق.

وقال سفيان الثوري: كل شيء يسبح لله إلا الحمار فإنه ينهق بغير فائدة.

وقال وهب: قال لقمان لابنه: يا بني، إن الدنيا بحر عميق وقد هلك فيه عالم كثير، فإن استطعت أن تجعل سفينتك فيه الإيمان بالله وشرائع فيه التوكل وزادك التقوى، وإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك^(٣)، وإذا سكنت فاسكت في تفكير، وإذا تكلمت فتكلم بحكمة، ولا يكن الديك أحسن حالاً منك، فإنه لا ينام الليل كله بل يخفق بجناحيه ويصرخ إلى الله بالتسبيح.

حدثنا عبد العزيز بن محمود البزاز بإسناده عن ابن المسيب قال: قال لقمان لابنه: يا بني، لا ينزلن بك أمرٌ رضيته أو كرهته إلا جعلت في ضميرك أن ذلك خيرٌ لك، قال: يا أبت أمّا هذه فلا أقدر عليها حتى أعلم ما قلت إنه كما قلت، قال: يا بني، فإن

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٣.

(٢) انظر «تفسير البغوي» ص ١٠١٣.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٣.

الله قد بعث نبياً فهلم بنا نأته فعنده بيان ما قلت لك، فخرجا على حماريهما وتزوذا ما يصلحهما، ثم سارا أياماً، فلقيتهما مفازةً فسارا فيها إلى أن تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد، واستبطاً حماريهما فنزلا وجعلا يشدان على سوقهما، فنظر لقمان إلى سواد أمامه ودخان فقال في نفسه: الدخان عمران والسواد شجر، فوطىء ابن لقمان على عظم ناتىء في الطريق فدخل في باطن قدمه وظهر من أعلاه، فخر صريعاً مغشياً عليه، فقعده لقمان ووضع رأس ابنه في حجره، واستخرج العظم بأسنانه، وشق عمامته فشد بها رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه وقطرت قطرة من دمه على خد الغلام فانتبه لها، فرأى أباه يبكي فقال: يا أبت أنت تقول هذا خير لي، وكيف يكون كذلك وقد نفد الطعام والشراب - أو الماء - ونحن في هذه المفازة، وقد دخل هذا العظم في قدمي، فإن أقمنا متنا جميعاً، وإن ذهبنا وتركنا ذهبت بهم وغم، فقال لقمان: أمّا بكائي فرقة الوالد، وودت أني أفديك بجميع مالي من الدنيا، وأمّا قولك كيف يكون هذا خيراً لي فلعل ما صرف عنك أعظم مما بليت به.

ثم نظر لقمان أمامه فلم ير الدخان ولا السواد، وإذا شخص قد أقبل على فرس أبلق عليه ثياب بيض وعمامة بيضاء يمسح الهواء مسحاً، فلما قرب منهما توارى عنهما وصاح: أنت لقمان؟ قال: نعم، قال: الحكيم؟ قال: كذا يقال. ثم قال لقمان: يا عبد الله من أنت؟ أسمع كلامك ولا أرى وجهك، قال: أنا جبريل لا يراني إلا ملك مقرب أو نبي مرسل ولولا ذلك لرأيتني، ما قال لك ابنك هذا السفیه؟ قال لقمان في نفسه: إن كنت جبريل فأنت أعلم بما قال مني، فقال جبريل: ما لي بشيء من أمركما علم، ولكن ربي أمرني أن أخسف بهذه المدينة وما يليها، فأخبرت أنكما تريدانها، فدعوت الله أن يحبسكما عنها بما شاء، فحبسكما بما ابتلي به ابنك، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف.

ثم مسح جبريل على قدم الغلام فاستوى جالساً أو قائماً، ومسح يده على الإناء الذي فيه الطعام والشراب فامتلا طعاماً وشراباً أو ماءً، ثم ركبا حماريهما فإذا هما في الدار التي خرجا منها.

وقال ابن عباس: مازال لقمان يعظ ابنه ويقول: يا بُني، يا بُني، حتى انفطرت مرارته وانصدع قلبه فمات.

وحكى الخطيب عن محمد بن إسحاق قال: قال لقمان لابنه: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، فإن أنصفك عند غضبه، وإلا فاحذره.

ذكر وفاة لقمان عليه السلام

واختلفوا في موضع قبره: فقال الواقدي والسُّدي: بأيلة، وقال قتادة: بالرَّمْلَة ما بين مسجدها وسوقها، وهناك قبر سبعين نبياً ماتوا بعد لقمان جوعاً في يوم واحد، أخرجهم بنو إسرائيل من القدس فألجؤوهم إلى الرَّمْلَة ثم أحاطوا بهم، فتلك قبورهم هناك.

